

نعم الزينبيات (ناشرات الشُّعُور)!

يحتدم الجدل والاختلاف، في مفصل من أهم مفاصل فاجعة كربلاء، التي أستشهد فيها سبط نبينا محمد ﷺ، الحسين بن علي، وأهل بيته عليهم السلام. والمفصل جاء في (زيارة الناحية) عندما قال الإمام المهدي -عجل فرجه-: "...وَأَسْرَعَ فَرَسُكَ شَارِدًا إِلَى خِيَامِكَ، قَاصِدًا مُحِمًّا حِمًا بَاكِيًا، فَلَمَّ رَأْيُنَا النَّسَاءُ جَوَادَكَ مَخْزِيًّا، وَنَظَرْنَا سَرَجَكَ عَلَيَّهِ مَلُوءِيًّا، بَرَزْنَا مِنَ الْخُدُورِ، نَاشِرَاتِ الشُّعُورِ عَلَى الْخُدُودِ، لَاطِمَاتُ الْوُجُوهِ سَافِرَاتِ، وَبَالَعُوهُ دَاعِيَاتِ، وَبَعْدَ الْعِزِّ مُذَلَّلَاتِ، وَإِلَى مَصْرَعِكَ مُبَادِرَاتِ، وَالشُّمُورُ جَالِسٌ عَلَى صَدْرِكَ، وَمَوْلِغٌ سَيْفُهُ عَلَى نَحْرِكَ، قَاتِلٌ عَلَى شَيْبَتِكَ بِيَدِهِ، ذَابِحٌ لَكَ بِمُهِنِّدِهِ، قَدْ سَكَنَتْ حَوَاسُّكَ، وَخَفِيَتْ أَنْفَاسُكَ، وَرُفِعَ عَلَى الْقَنَاطَةِ رَأْسُكَ".

هذه الزيارة يجزم العلماء بصحتها. والمتذوق للكلمة والسرد اللغوي، يقف مذهولا من جمال المعاني، وسبك الكلمات وجزالة الألفاظ، فلا يمكن بأي حال من الأحوال توهين الزيارة، أو التشكيك فيها، أو ببعضها. وكذلك من جهة ثانية يوجد من يعترض على صحتها بوجهة استحالة أن تكشف الزينبيات بما فيهم بطله كربلاء عن (شعرها) أمام الأعداء الأغراب. وهذه الجزيئية في أدبيات كربلاء، تسببت وتمظهرت من خلالها سجالات ومجادلات واحترابات. من ذلك عندما تعرض سماحة السيد محمد رضا السلमान - بوعدنان- لهذه الحيثية في خطبة له بمسجد الإمام الحسين بالمبرز، باستنكار ورفض كشف السيدة زينب شعرها أمام الأعداء، قامت الدنيا عليه. والغريب عندما تعرض أحد العلماء من خارج الوطن لنفس الموضوع لم يعترض عليه أحد، وقُبِلَ منه بل وتسابقت القروبات التواصلية في عرض ما تطرق إليه في نفس المضمون.

وبعد التمعن في هذه المسألة وجدتُ أن كلا الفريقين حجتة صحيحة. وأعني أن (زيارة الناحية) صحيحة المتن بوجهة، ووثيقة علمائنا. وبالمقابل من رفض أن زينب وبقية الزينبيات كشفن شعورهن كذلك كلامه ومنطقه صحيحاً. وللتوفيق بينهما نورد ذلك عبر محورين نتطرق فيهما بالتحليل والمنطق وبالالتكاء على اللغة العربية وموروثها اللغوي.

السلام. في هذه الحالة سيكون موقف السيدة العظيمة التعبير عما يختلج في وجدانها مما ينضج من
سويداء قلبها، من فجعة وآلام. ولأنها من بيت هاشمي (كبيرهم لا يقاس، وصغيرهم جمرة لا تداس) هنا من
الطبعي و (ليس الطبيعي) أن تعبر هي وبقية الزينبيات عما تكتنفه صدورهن من مآسي. هذه الحالة
والفضضة والشقشقة ببساطة (نشر) وهي كلمة نتناولها حتى يومنا هذا، ففي شبكات التواصل. قولنا (لقد
نشرت مقطعاً) أو (لا تنشر مقاطع غير مرغوب فيها) ومن الاشتقاقات (نشرة الأخبار) وغيرها.

وهذه الكلمة متجذرة في الموروث اللغوي من ذلك قول الشاعر:

فَإِنْ تَضَرَّبَ الْيَّامُ يَآ مَيَّ بَيْنَنَا ...
فَلَا نَاشِرٌ سِرًّا وَلَا مُتَغَيِّرٌ.

وكذلك قول الشاعر:

وَعُودِرَ عَلَوْدٍ لَهَا مُتَطَاوِلٌ ...
نَبِيلٌ كَجُثْمَانِ الْجُرَادَةِ نَاشِرٌ.

وكذلك قول شاعر آخر:

إِلا كَنَاشِرَةَ السَّذِيِّ ضَيَّعْتُكُمْ ...
كَالْغُصْنِ فِي غُلَّوَائِهِ الْمُتَنَبِّتِ.

إذن يتضح لنا أن كلمة (ناشر) بمعنى طاهر وهو أسم الفاعل ويجمع (ناشرات) للمؤنث. وعندنا في
(الأحساء الخلاقة) قول النساء (نشرت الثياب على الحبل) فالثبات إذا نشرت على الحبل (كشفت) ويسهل
معرفتها.

وفوق كل ما تقدم قوله تعالى: (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ) وكثير غيرها كقوله: (يَلَّ يُرِيدُ
كُلُّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُوَفَّىٰ صُحُفًا مُّنْشَرَّةً) وغير ذلك.

2- معنى الشعور

في حالة مأساوية وفي مفصل مأساوي، يندى له جبين الإنسانية (أسرع الفرس شاردًا إلى الخيام). ورأته
بطلة كربلاء، هذه صورة متحركة لأحد أحداث كربلاء. والسؤال أيعقل امرأة عظيمة بحجم بنت أعظم وأفصح
وأبلغ من نطق باللغة العربية (صوت العدالة الإنسانية) وهو الإمام علي، أن (تنشر شعرها) وتكتفي بذلك
كردة فعل. وهي التي زلزلت القصر الأموي بخطبتها أمام يزيد ووزرائه، وحاشيته؟

إذن ما المقصود بلفظة (الشعور)؟

الشعور جمع مشاعر، وفي الحالات الحالكة العصبية، من الطبيعي أن يفصح وينشر الإنسان أحاسيسه (مشاعره). وجدير ذكره أنه من جمال اللغة العربية أن اللفظة الواحدة لها معان متعددة تنسجم مع الوشائج المشتركة، منها لفظ (الشعور) فهي أحاسيس يستشعرها المرهف الحس الذي يختزن في ذاتيته إنسان رقيق يستشعر ما يحيط به ويتجاوب. ومما يدعم هذا السياق قول الشاعر:

ما الشعرُ إلا شعورُ المرءِ يرسلُهُ ...

عَفَوَ البديهةَ عن صدقٍ وإِمانٍ .

وأيضاً يقول الشاعر:

الشاعرُ الحقُّ من يجلو الشعورُ له ...

شمساً من الحَـي في داجٍ من الظلمِ .

ومن زاوية أخرى (الشعور) شعيرات ضعيفة رقيقة تتمايل وتتجاوب مع المحيط الخارجي فإذا كانت الأجواء والأهواء شديدة تحركت خصال الشعر يمنة ويسرة. وتسكن (الشعور) إذا سكن الهواء. إذن الشعور هي أحاسيس رقيقة تتحرك وفق الأحداث. من هنا ينجلي وجه الشبة والقاسم المشترك بين (الشعور) الأحاسيس، وبين (الشعور) زينة النساء والتاج الذي يكسي فروة الرأس.

وما قصده الإمام الحجة كما أعتقده، هو (الشعور العاطفي) حسب مقتضى الحال، فالنساء أكثر عاطفة من الرجال في التعبير عما يختلج في صدورهن، من هنا نرى أمهاتنا وأخواتنا إذا نزلت نازلة في وفاة عزيز، نراهن أكثر قدرة في التعبير في سرد و (نشر) كل المشاعر والاحاسيس المرتبطة بالفقيد.

ومما يدعم هذا البحث، تماسك وارتباط كلمات (زيارة الناحية) بحيث نراها تفسر كلماتها بعضها بعضاً. ولتوضيح ذلك نتصور ونتخيل فجیعة كربلاء وبالتحديد وقتما نصحت الزينبيات بما في صدورهن. لو أردنا أن نصف حالة السيدة زينب بعد أن (نشرت) والبقية ما تقلقل في صدورهن، وأصبحن (ناشرات الشعور)؟ بماذا سيكون الوصف الدقيق لحالتهن وقتذاك؟

إجابة لذلك، سيكون الوصف ببساطة حسب المتداول عندنا قولنا أن الزينبيات قالوا اللي في (خاطرهن). أي كل اللي يترجرج ويتقلقل في صدورهن، عبروا عنه ونشروه. وهذا بالتمام والكمال ما عبر عنه الإمام المعصوم في زيارته بقوله: (...بَرَازَنَ مِنَ الخُدُورِ، نَاشِرَاتِ الشُّعُورِ عَلى الخُدُودِ، لَاطِمَاتُ الوُجُوهِ سَافِرَاتِ). بعد ذلك تكون الزينبيات قد نشرن ما عندهن. والنتيجة أن ذلك بمجمله

(أسفرن) ومعناه: (كشفن) . ومن هنا سمي السفر سفراً لأنه (يسفر) ويكشف ويظهر عما في بواطن النفوس. وكأنما أراد الإمام أن يوصف لنا الموقف، بأنه في الوقت الذي تلطم فيه الزينبيات وجوههن فإنهن (سافرات) أي كاشفات ومبينات خزي جيش بني أمية.

وبهذا تكتمل الصورة الكربلائية، في مفصل كثر الجدل فيه، إذ عندما جاء الفرس للخيام، تفاعلن الزينبيات وجدانياً وتيقنن باستشهاد سيد شباب أهل الجنة. حينها نشرن شعورهن، وأظهرن كل ما يضرب في صدورهن. وبعد ذلك نستطيع أن نصف الحالة أن الزينبيات (أسفرن) وقلن وأفصحن ما في خلدن. وبهذا تتكامل الصورة من حيث ردة الفعل. وبعد أن لطمن الخدود كتفاعل جسدي، نشرن ما يختلج في صدورهن، وأسفرن عما في قلوبهن. بعد ذلك يأتي الالتجاء إلى الله، وهو ما عبر عنه الإمام في زيارته: (وبالعَوِيلِ دَعَائِيَّاتٍ). وبذا تكون الصورة المأساوية كاملة إبتداء من البروز من الخيمة والتفاعل جسدياً بضرب الخدود، والتفاعل بيانياً، ووجدانياً بالدعاء. ويواصل الإمام في توصيف الفجيعة في تسلسل زمنكاني وكأنك في شريط سينمائي أنتجته أكبر الشركات بقوله: "...وَبَعْدَ الْعِزِّ مُذَلَّلَاتٍ" وهو تصوير دقيق لما حل بالزينبيات إبتداء من استشها الحسين وحرق الخيام، وانتهاء بترحيلهن مكبات إلى يزيد.

الفكرة:

من يأخذ ويتمسك بصحة (زيارة الناحية) فرأيه وتمسكه صحيحاً. على أساس أن (كاشفات الشعور) تعني كشفن وعبر عما في يموج في صدور الزينبيات من شعور إزاء مفصل من أفجع المفاصل الكربلائية.

ومن يأخذ ويتمسك برأي استحالة أن تكون الزينبيات (ناشرات الشعور) فرأيه وتمسكه صحيحاً، وهذا ما تم بيانه في البحث. وبالتالي إذا أخذنا بهذا البحث تحل مشكلة كبيرة تسببت في احتربات ومناكفات بين العلماء، ومحاولة تضعيف وتوهين (زيارة الناحية). أما إذا أخذنا بما جاء في هذا البحث، فيكون التوفيق بين الاتجاهيين، وانتهاء من هذه الجزيئية من خلال تحليل النص والالتكاء على فهم النص لغوياً.